مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(عبرانيين ٧: ٢٦–٢٨؛ ٨: ١و ٢)

يا إخوةُ إنَّا يُلائِمنا رئيسُ كهنةٍ مثلُ هذا بارٌّ بلا شرٍّ ولا دَنَسٍ مُتنزِّهٌ عنِ الخطأةِ قد صار أعلى من السموات* لا حاجةَ له أن يُقرِّب كلَّ يومٍ مثلَ رؤساءِ الكهنةِ ذبائحَ عن خطاياهُ أولاً ثمَّ عن خطايا الشعب. لأنَّه قضى هذا مرَّةً واحدةً حين قرَّبَ نفسه* فإنَّ الناموسَ يُقيمُ أُناساً بهم الضعفُ رؤساءَ كهنةٍ. أمَّا كلمةُ القَسَمِ التي بعد الناموسِ فتُقيمُ الإبنَ مكمَّلاً إلى الأبد* ورأسُ الكلام هو أنَّ لنا رئيسَ كهنةٍ مثلَ هذا قد جلسَ عن يمينِ عرشِ الجلالِ في السموات* وهو خادمُ الأقداسِ والمسكنُ الحقيقيُّ الذي نصبه الربُّ لا إنسانٌ.

القديس يوحنا الذهبي الفم

تعيّد كنيستنا المقدّسة في الثالث عشر من شهر تشرين الثاني للقديس يوحنا الذهبي الفم رئيس أساقفة القسطنطينية. وقد سمّته الكنيسة الذهبي الفم لما خرج من فمه من درر، من خلال مواعظه التي كانت تخلب ألباب سامعيه. كلّ ذلك بفضل موهبة منحه إياها الله، وبفضل غيرته على إيصال كلمة الله لكل مؤمن، من خلال تفسيره للكتب المقدّسة، بواسطة معظم مواعظه.

لقد أخذ تفسير الكتب المقدسة حيّزاً مهمًّا من حياة القديس يوحنا، لأنه كان يعتبره الوسيلة التي يتواصل الله بها معنا، أي إنّ الله يكلّمنا بوساطة الكتب المقدّسة. ونجد في تفسيره لإنجيل متى أصدق مثل على هذا الأمر، خاصة في عظته الأولى، حيث يشرح لماذا أصبح عندنا كتب مقدّسة، ويتطرّق أيضاً إلى كيفيّة كتابة العهد الجديد وأسلوب كلّ من الإنجيليين الأربعة. كما أنّه يواجه الفلسفة مشدّداً على بساطة تعليم الرب يسوع، ويحثّ المؤمنين على التعلّم من خلال طرح عدّة أسئلة تتعلّق غالبيّتها بإنجيل متى، ويطلب من المؤمنين أن يكونوا متيقّظين حتى يتعلّموا الأجوبة عن تلك الأسئلة، عندئذ يتقرّبون من الله ويدخلون إلى مدينته التي هي في السماء.

العدد ٤٦/٢٠١١

الأحد ١٣ تشرين الثاني ٢٠١١

تذكار أبينا الجليل في القديسين

يوحنا الذهبي الفم

رئيس أساقفة القسطنطينية

اللحن الخامس

إنجيل السَحَر الحادي عشر

يبدأ القديس يوحنا عظته بالإشارة إلى أنّه في البدء لم يكن الله بحاجة إلى الكتابات (التي سمّيناها في ما بعد الكتاب المقدّس) لأنّه كان يكلّم الإنسان مباشرة، عندما كان قلب الإنسان طاهراً، ويقول: «إنّ الله قد كشف أنّ السبيل الأفضل لنا هو في أن تكون قلوبنا منقوشة بالروح القدس، وذلك بواسطة كلماته وأفعاله معاً. فالله لم يتحدّث في أيّام نوح وإبرهيم وذريّته، وفي أيام أيوب وموسى بواسطة الكتابات، بل كان يتحدّث هو نفسه بنفسه بشكل شخصيّ مباشر، إذ وجد ذهن هؤلاء طاهراً. إنّما بعد سقوط كلّ الشعب العبراني في فخ الشرير، كانت حينئذٍ كلمة مكتوبة،

الإنجيل

(لوقا ١٠: ٢٥–٣٧)

في ذلك الزمان دنا إلى يسوعَ ناموسيٌّ وقال مجرِّباً له يا معلّم ماذا أعملُ لأرثَ الحياةَ الأبديَّة* فقال له ماذا كُتِبَ في الناموس. كيف تقرأُ* فأجاب وقال أحببِ الربَّ إلهَكَ من كلِّ قلبك ومن كلِّ نفسِك ومن كلِّ قدرتِك ومن كلِّ ذهنِك وقريبَك كنفسِك* فقال لهُ بالصواب أجبتَ. إعملْ ذلك فتحيا* فأراد أن يُزكّيَ نفسَه فقال ليسوعَ ومَن قريبي* فعاد يسوعُ وقال كان إنسانٌ منحدِراً من أورشليم إلى أريحا فوقع بين لصوص فعَرَّوهُ وجرَّحوهُ وتركوهُ بين حيٍّ وميّتٍ* فاتّفق أنَّ كاهناً كان منحدِراً في ذلك الطريق فأبصره وجاز من أمامِه* وكذلك لاويٌّ وأتى إلى المكان فأبصرَه وجاز من أمامه* ثم إنَّ سامريًّا مُسافراً مرَّ به فلمَّا رآه تحنَّن* فدنا إليه وضمَّد جراحاتِه وصبّ عليها زيتاً وخمراً وحمله على دابَّته وأتى به إلى فندقٍ واعتنى بأمره* وفي الغدِ فيما هو خارجٌ أخرجَ دينارَيْن وأعطاهما لصاحبِ الفندقِ وقال له إعتنِ بأمره. ومهما تُنفِق فوق هذا فأنا أدفعُه لك

وألواحٌ وتحذيرٌ معطاة لهؤلاء»... «والحال نفسه في العهد الجديد، إذ نجد أنّ الله لم يعطِ الرسل أيّ شيء مكتوباً، بل وعدهم بأنّه سيعطيهم بدل الكلمات المكتوبة نعمة الروح القدس الذي يذكّرهم بكلّ ما قاله لهم (يو ١٤: ٢٦)، ويقطع معهم عهداً جديداً ويجعل شريعته في ذهنهم، ويكتبها في قلوبهم ويكون الجميع متعلّمين من الله (إرميا ٣١: ٣١–٣٣). والرسول بولس يشير إلى أنّهم نالوا الناموس لا في ألواح حجريّة بل في ألواح قلبٍ لحميّة (٢ كور ٣: ٣)». ولكن مع مرور الزمن صار المسيحيون مجدّداً في حاجة إلى تذكيرهم باستعمال الكلمة المكتوبة.

من هنا نلاحظ أنّ الرب خاطب الرسل أولاً مباشرة، وهم بدورهم خاطبوا الناس مبشّرين إيّاهم شفاهةً: «إن الرسل بحملهم الروح القدس صاروا بفضل تلك النعمة كتباً حيّة وشرائع حيّة، وقد تحادث الله بلسانهم مع جميع الذين اقتربوا منهم». وعملهم هذا أسموه «الأنباء السارّة، لأنّه كان خلاصاً من العقاب وغفراناً للخطايا وبرًّا وقداسة وفداءً (١ كور ١: ٣٠) وتبنّياً وميراثاً للسماء وشركة مع ابن الله التي أعلنها للجميع». ويشدّد على أن ما أعطي لنا وما قبلناه كان بفضل محبّة الله لنا وليس بجهدنا وعرقنا أو بفضل تعبنا وعذابنا.

بعد ذلك يتطرّق إلى التباينات الموجودة عند الإنجيليين الأربعة مبيّناً وحدة التعليم في هذه الأناجيل: «مع أنّه يظهر للبعض أنّ الإنجيليين قد وقعوا في التناقض في مواضع كثيرة، إلاّ أنّ هذا لا يؤذي حقيقة ما قالوه بشيء، كما أنّهم لم يختلفوا في ايّ شيء من الأمور التي تؤلّف حياتنا وتمنح تعليمنا تلاحماً ولو بمقدار ضئيل. لكن ما هي هذه الأمور؟ إنّ الله صار إنساناً، إنّه صنع العجائب، إنّه صُلب، إنّه دُفن، إنّه قام ثانية، إنّه صعد، إنّه سيَدين، إنه أعطى وصايا مؤدية للخلاص، إنّه أتى بشريعة لا تعاكس شريعة العهد القديم، إنّه ابنٌ، إنّه المولود الوحيد، إنّه ابن حقيقيّ، إنّه هو والآب ذو جوهر واحد، وأمور كثيرة مثل هذه ممّا يوجد بينها اتفاق تام».

ثم ينتقد الفلسفة التي تتطلّب من جهة قدرات عقليّة، كما أنّها تطال فئة معيّنة من الشعب من جهة أخرى. أمّا تعليم الربّ في الأناجيل فإنّه يتّسم بالبساطة وبالواقعية لهذا يصل إلى كل إنسان: «علّمنا المسيح ما هو البرّ وما هو لائقٌ وما هو نافعٌ وكلّ فضيلة بشكل عام، مؤلفاً إيّاها بكلمات قليلة وسهلة، قائلاً مرّة إنّه: بهاتين الوصيّتين يتعلّق الناموس كلّه والأنبياء (متى ٢٢:٤٠)، أي محبّة الله ومحبّة القريب كالنفس، ومن جهة أخرى: كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم، لأنّ هذا هو الناموس والأنبياء» (متى ٧: ١٢).

ينتقل القديس يوحنا بعد ذلك إلى أهميّة دراسة الكتب المقدّسة، ومنها الأناجيل، من خلال طرح أسئلة عديدة يطرحها على سامعيه مأخوذة في غالبيّتها من إنجيل متى. ويطلب من المؤمنين أن

عند عودتي* فأيُّ هؤلاءِ الثلاثةِ تحسَبُ صار قريباً للذي وقع بين اللصوص* قال الذي صنعَ إليه الرحمة. فقال لهَ يسوعُ إمضِ فاصنَع أنتَ أيضاً كذلك.

تأمل

لنكن رحماء تجاه إخوتنا في الإنسانيّة لكي يكون الله رحيماً تجاهنا. الرحمة هي الذبيحة الأكبر والمرضية لدى الله. لذلك ينصحنا الرسول: «ولكن لا تنسوا فعل الخير وتقاسم ما تملكونه مع الآخرين، لأنه بذبائح مثل هذه يُسرّ الله» (عب ١٣: ١٦). لا ننسَ أيضاً أنّ الله لا يُسرّ عندما تؤدَّى الصدقة بالأموال التي تُجنى بالمخالفة أي من السرقة والخداع والاختلاس والربا وكلّ أنواع الربح غير الشريف؛ فقط التقدمة التي تأتي من تعبنا الشريف يقبلها الرب، ويردّ كل تقدمة أخرى، لأنّك لا تستطيع أن تسلب شخصاً لتعطي آخر، ولا أن تؤذي الأول لكي تُفيد الآخر. نفعل الرحمة، بالضبط لكي نرحم لا لكي ندمّر شركاءنا في الإنسانيّة. مَن يدمّر إنساناً لكي يكونوا متيقّظين عند سماعهم إيّاه وهو يشرح لهم تلك الأمور، ولكنّه يهدّدهم بالإنقطاع عن تعليمهم إذا وجد عندهم استهتاراً بكلمات الإنجيل التي هي كلام الله: «ولكي يكون تعلّم الكلمة أسهل، نطلب إليكم لا بل نستعطفكم أن تحضّروا هذا القسم من الكتاب المقدّس الذي نحن مزمعون أن نشرحه، حتى تكون قراءتكم تحضيراً لفهمكم (كما كانت الحال مع الخَصيّ في أع ٨: ٢٨)، وهذا ما سيسهّل عملنا... يكفي في المرحلة الأولى أن تتعلّموا الأسئلة، وتوقكم للإجابات يعتمد عليكم، قبل أن نتكلّم. فإنّني إذا لاحظت تيقُّظكم وتوقكم للتعلّم سأسعى لإضافة الأجوبة، ولكن إذا كنتم غير منتبهين فإنّي سأُلغي كلاً من الصعوبات وحلولها، إطاعة للقانون الإلهي، فإنّه قال لا تُعطوا قدساتكم للكلاب ولا تُلقوا دركم أمام الخنازير، لئلا تدوسها بأقدامها. ولكن مَن هم الذين يدوسون الدرر بأقدامهم؟ إنّهم أولئك الذين لا يقيمون وزناً لهذه الأمور ولا يكرّمونها».

وفي آخر عظته يلفت القديس يوحنا إلى أنّ الإنسان يؤخذ ببعض الأمور العالميّة ويحفظ دقائقها، ويعطي مثلاً عن كتب الرحالة التي تصف الأماكن المتنوّعة في العالم والتي يسترسل الإنسان عند قراءتها في تصويرها في مخيّلته ليستمتع بجمالها. ويدعو قدّيسنا المؤمن إلى أن ينتبه أشدّ الإنتباه إلى وصف الإنجيليين لمدينة الله، المدينة التي نلتقي فيها بالله: «فلنحدّد إذاً أساساتها، ونتأمّل أبوابها المصنوعة من الحجارة الكريمة واللآلئ، لأنّنا نجد في إنجيل متى دليلاً ممتازاً لها. نحن سوف ندخل من بابها الآن، وهذا يتطلّب جهداً كبيراً من قِبَلنا، لأنه إن لم يجدنا منتبهين سوف يلقينا خارج المدينة».

الانتقاد

كثيراً ما نشعر بالحزن عندما ينتقدُنا بعض الناس، كما أنّنا كثيراً ما نُحزِنُ الآخرين بانتقاداتنا اللاذعة، ناسين ما شعرنا به عندما انتُقدنا سابقاً. الانتقاد لا يدخل خانة التوبيخ، إذ إنَّ الأخير يمكنه أن يكون مفيداً في عدَّة حالات: «لا توبِّخ مُستهزِئاً لئلاَّ يُبغِضك، وبِّخ حكيماً فيحبّك» (أمثال ٩: ٨)، إلاّ أنّ الانتقاد غالباً ما يكون أداةً لإظهار الأنا أفضل من الآخر، كما أنّه غالباً ما يكون ناجماً عن غياب المحبة.

الأمثلة اليومية من حياتنا عن انتقاد الآخر كثيرة ومتنوعة، إذ تتحوَّل أحياناً جلسات الصباح (الصبحيات) إلى جلسات محاكمة لكل من لم تُعجبنا ملابسه في الفترة الماضية أو مَن تسريحة شعرها ليست حسب أذواقِنا أو مَن نسيَ تلميع حذائه ولسوء حظه رأيناه فوقع فريسةً لألسنتنا. هكذا نملأ أوقاتنا، بالكلام على فلانٍ والحديث عن فلانةٍ من الناس، فأين الإفادة من كل ذلك؟ هذا ليس سوى إشباعٍ للأنا إذ نجعل أنفسنا في الموقع الأفضل معتبرين كل الذين ننتقدهم أدنى منا مرتبةً ويحق لنا

يخلّص آخر فهو لا يفعل رحمةً بل ظلماً كبيراً وخطيئة عظيمة.

إنّ مَن يسعى إلى الثروة هو بحاجة دائمة إلى المال، ومَن لا يبالي بالغِنى هو دائماً غني، لأنّ الغِنى الحقيقيّ ليس أن تصبح غنيًّا بل ألاّ تسعى إلى ذلك. ماذا أعني بذلك؟ هناك غنيّ يسلب من الكلّ، وهناك غنيّ يعطي الكلّ، الأوّل يغتني بالسّطو والثاني يغتني بما يقدّم. الأول يزرع في الأرض والثاني في السماء، وبقدر ما هي السماء أفضل من الأرض، كذلك يكون ثمرها أكثر من ثمر الأرض. لذلك يوصينا الرب: «لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء» (متى ٦: ١٩، ٢٠).

إذاً، لكي يرحمنا الرب، علينا أن نرحم إخوتنا في الإنسانيّة. لنذّخر ليوم الدينونة كنز الرحمة في السماء الذي يمكنه أن يطفئ نار الجحيم الرهيبة، ويهبنا النور الإلهي والحياة والغبطة الإلهيين، «لأن الرحمة تخلّص الإنسان من الموت وتطهّره من كل خطيئة» (طوبيا ١٢: ٩).

القديس يوحنا الذهبي الفم

أن نقول عنهم ما يحلو لنا، فلماذا ننظر القذى الذي في عين أخينا وأمَّا الخشبة التي في عيننا فلا نفطن لها؟ (متى ٧: ٣).

الأسوأ من ذلك عندما تتحوّل جلساتُنا إلى محاكماتٍ، فنبدأ برشق الناس بالألقاب التي لا نعرف أبعادها والتي أبسطها لقب «كذّاب» حيث نقول: «فلانٌ كذاب». عندما نُلقي نعوتاً كهذه فإنّنا بذلك ندين الشخص وليس الخطأ الذي قام به، أي الكذب في هذه الحالة. المسيح، وبعده الرسل والكنيسة، لم يدينوا أحداً بل دانوا الخطيئة: «لا تدينوا لكي لا تُدانوا» (متى ٧: ١). أيضاً، عندما نلقّب أحداً بالكذّاب فإنّنا بذلك ننفي عنه بنوّته لله أو خلقه على صورة الله ومثاله، جاعلينه ابناً للشيطان لأنّ إبليس «كذّاب وأبو الكذّاب» (يو ٨: ٤٣).

أحياناً كثيرةً يقع أبناؤنا ضحيّة انتقادِنا، إذ نعلّمهم ألاّ يحترموا الكلمة التي ينطقون بها من خلال عدم التزامنا بكلامنا. إذا أردنا أن نوضح هذه الفكرة يمكننا أن نعطي مثالاً ينطبق على الكثير من الأهل (بالجسد أو بالروح)، الذين ينتقدون أبناءهم لعدم قيامهم بنشاطات أو اشتراكهم في رياضاتٍ، لكن عندما يشترك الابن مثلاً في نشاط ويأتي وقت تقديم ما تعلّمه أمام الجميع (مباراة كرة قدم، غناء، ترتيل...) حينئذٍ لا نجد الأهل بين الحضور، الأمر الذي يُحزِنُ أبناءنا ويجعلهم ناقمين علينا وهكذا يصبحون ضحيةً لانتقاداتنا بحيث لا يعودون يثقون بكلامنا أو كلام سوانا الأمر الذي ينعكس على التزاماتهم (الروحية والحياتية). يقول أحد الآباء القديسين الشيوخ إنّه لا يمكننا أن نصلّي صلاة الرب يسوع (يا ربّي يسوع المسيح ارحمني) من أجل أحدٍ آخر إن لم نصلّها من أجل أنفسنا قبل ذلك، لأنّه علينا أن نشعر كم نحتاج نحن إلى الرحمة بسبب خطايانا قبل أن نصلّي كي يُرحم إخوتنا، لأنّه لو صلّينا من أجلهم قبل أنفسنا لوقعنا في خطيئة الكبرياء ظانّين أنّنا مسؤولون عن خلاص أنفُس الآخرين. في الموضوع نفسه يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: «غالبيّة الناس يحكمون على الآخرين وينتقدونهم بسهولةٍ كبيرة لأنهم لا يفحصون خطاياهم قبل أن يفحصوا خطايا الآخرين. كلُّنا نتغاضى عن خطايانا وننشغل بخطايا الغرباء، على العكس إن فكّرنا بخطايانا لكنّا رحماء مع أقربائنا ولسامحناهم بسهولةٍ أكبر».

في النهاية، دعونا ننتقد أنفسنا محاكمين خطايانا أولاً، وإذا وصلنا إلى قامةٍ روحية تسمح لنا برؤية خطايا الآخرين، فإنَّ التواضع الذي سيترافق مع هذه الحالة الروحية سيجعلنا نصمت قائلين إنّنا خاطئون أكثر ممن نرى خطاياهم وننتقدهم، مقتدين بأولئك القديسين الذين ظلّوا يعتبرون أنفسهم أخطأ الناس وهم على فراش الموت.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb